التسرب من الحضور في المدارس والكليات.. مشكلة تعليمية أم نفسية؟

د. عبد السلام آلبوحيَّة / مقيم أقدم في طب الأمراض النفسية

مع ارتفاع أعداد الإصابات بفايروس كورونا، قررت الحكومة العراقية وعلى أكثر من مرة إغلاق المدارس والجامعات، واستبدال الدوام الحضوريّ بنظيرٍ إلكتروني، وهذا ما كان الظرف يحتمه لأسبابٍ صحيّة مباشرة، ولكن – وكعادة أي إجراءٍ في ازمة – لا تعني صحة قرارٍ في لحظة، الاّ يكون له مردودٌ سلبي على مدىً أبعد؛ ففي المراحل المتأخرة من الوباء الفايروسي، حينما حاولنا التعايش معه بحضوره، كان هنالك وباءٌ آخر على صعيد الشباب، نفسيّ بطبيعته، يتمثل بظاهرة التسرب من الحضور في المدارس School Absenteeism وهي ظاهرة لها أبعادٌ نفسية سيئة جداً، وهو ما ستتعرض له كلمتُنا هذه عاجلاً.

لن ندخلَ في سؤال ما السبب: هل الغياب سبَبُه اختلالات نفسية – من قبيل الكآبة والقلق –، أم ان الاختلالات سببها الغياب؟ فمجموعةٌ كبيرة من البحوث أثبتت ان العلاقة بينهما أكيدةً جداً، ولا يمكننا ان نعزو القلق الطُلابي العام بعد خروج المؤسسات التعليمية من الحظر إلى التَصنُّع فقط، بل ربما كان الوباء وتهلهل النظام التعليمي قد رفع الغطاء عن مشكلة حاضرة منذ اليوم الأول، غرَّب عنها تجاهلٌ مجتمعي وتعليمي عميق.

وبغض النظر عن جدلية الأسباب، فظاهرة الغياب بحدِّ نفسها سببٌ لمجموعة من الظواهر النفسية والاجتماعية المُقلقة التي أكدتها الدراسات\* ومنها الفشل في التواصل الاجتماعي، وفي الوظيفة مستقبلاً، وسوء العلاقة مع الأهل، والتواصل مع نُظراء سيئين، وتَعنُّد الكآبة، وانهيار الثقة بالذات؛ **فالغياب – إذا كان جذره نفسياً – لا يُحلُ بمزيدٍ من الغياب، بل ذلك من قبيل صبّ الزيت على النار!**

والنتيجة الأهم لكل كلامنا، هيَّ أن التسرب من المدارس والتهرب من المحاضرات – على صعيد الجامعات –، قد لا تكون مشكلةً نفسية في الجوهر، بل هيّ أحد أصداء نظام تعليمي عفا عليه الزمن، وتعرَّض لتحدياتٍ كبيرة آخرها كورونا، ولكنَّهُ عرضاً أدى الى مشكلةٍ نفسية ضخمة، ينبغي لنا التعامل معها، ولو من خلال توعية الكوادر التدريسية بالتعامل الصحيح معها، فليست كل مشكلة نفسية سبباً للنُصح بالإجازة او الانتساب، وهذه ظاهرة مؤسفة نشهدُها يومياً حينَ إرسال طلاب وطالبات لهذا الغرض إلى العيادات النفسية، إذ قد يكون الغياب/الإجازة/الانتساب كما قلنا سبباً في زيادة المشاكل النفسية وليس تقليلها.

\* أنظر لأجل مراجعة جيدة لهذه النقطة والتي سبقتها:

Wood, Jeffrey J et al. “School attendance problems and youth psychopathology: structural cross-lagged regression models in three longitudinal data sets.” Child development vol. 83,1 (2012)